صور من الحياة :

يقتـــل أخاه ... !

« مهداة إلى الأستاذ كامل محمود حبيب »

للأستاذ عمر عودة الخطيب

درج الناس في القرية على أن يستقبلوا صباح اليوم الأول من العيد في المقبرة ، فيزوروا الأموات قبل الأحياء ، ويضعوا على قبورهم أكاليل الزهر ، وفروع النخيل ، وباقات الورد ، ويواسي بعضهم بعضاً ، ويخفف الخلي مصاب الشجي ، ويجفف القريب دمع القريب ... وذهبت صباحاً مع القوم ، وبدأت بزيارة ذوي القربى والأصحاب ، أقرأ للجميع آيات من القرآن ، وأستلهم الله لهم الرحمة والرضوان ، وما لبثت أن فوجئت — خلال تطوافي — بصيوان كبير فوق ضريح أبيض قد ازدان بالأقمشة الحريرية الزاهية والورود ، كأنه عروس مجلوة ليلة الزفاف وقد تدلت على صدرها أجمل العقود ، وكأن رأس العروس ووجهها بالأصباغ والعطور ، قد أفعم رأس هذا القبر بأوراق الآس وأكمام الزهور ، فوقفت — من بعيد - أنظر إلى هـذا القبر ، وقد استهواني ما فيه من بهرج وزينة ، ألهاني عما يعاني ذووه من حزن ولوعة ، فسألت صاحبي عن أهل هذا الميت ، ولم يخامرني ريب في أنها (عروس تزف إلى قبرها[1]) ، وقد أقام لهـا أهلها وزوجها المفجوع هذا المأتم الحافل ، وهذا الزفاف الباكي ... أو خيل إليّ أن هذا صنيع حبيب وفيّ قبل العيد بحبيبته ... أنس نفسه ، وروح فؤاده — فدعاه الهوى — والهوى ذو أعاجيب — إلى ما أرى من عناية وتكريم ، ولم يفته أن يهدي إلى القبر — برهاناً على وفائه وصدق حبه — أجمل الورود وأشذى العطور ، إذ فاته أن يضع بين يدي حبيبته أزهى الثياب وأروع الحلي ... وكادت عيني تبض بقطرات من الدمع ، حزناً وأسى ، لولا أن صاحبي أخذ بيدي قائلا : هلمّ نزور هذا الضريح ونواسي هؤلاء المحزونين ! وانحدرت معه إلى الصيوان ، فرأيت — على جوانبه — نسوة نائحات ، ورجالا باكين ، ولفت نظري أن الجمع — وكان كثيراً — كان يبكي بحرقة لاذعة وحزن شديد ... وليسوا كلهم أهلا للميت أو إخواناً له ، فاعتراني خشوع ملك عليّ نفسي ، وهز ما بين جوانحي ، فسالت دمعي فلم يذرف ، فجلست ساكناً مطرق الرأس ، أستمع — بحزن صامت — إلى هذا النواح المتواصل ، وهذا البكاء الطويل ، ورأيت — والله — أن هذا الدمع الغزير ، يغسل من النفس أوزارها ، ويشيع فيها الصفاء والنور ، ويجعلها بيضاء نقية ، وادعة كالحمَل ، عذبة كالماء ، جميلة كالزهر ، فواحة كالعطر ، ونظرت بعيداً بعيداً ... إلى ما وراء الأبد ... وقلت لنفسي : لو أن هذا الإنسان القاسي الذي يسعى للمال الكثير والجاه الوفير ، والسيطرة والطغيان ، متخذاً لذلك أعنف الأسباب وأقسى الوسائل ... لو أنه يختلف كل أسبوع ، أو كل شهر ، إلى هـذه المقابر ، ليتلقى منها دروس الرضى والقناعة ، والمحبة والصفاء ... لكن هذا الضجيج ، وهدأ هذا العجيج ، وعاش الناس سعداء هانئين ، تظللهم المحبة ، ويرفرف عليهم السلام ...

ووثب إلى ذهني حينذاك جواب ذلك الفيلسوف الصيني العظيم (كونفوشيوس) حين كتب إليه بعض تلاميذه : (إني أرى للناس أخوة وليس لي أخ) ! فأجابه بقوله : (إن الإنسان الكامل ينظر إلى جميع من يسكنون بين المحيطات الأربعة كما لو كانوا اخوته ...)

قلت لنفسي بعد أن رددت هذا الجواب كثيراً : لو أن الناس جميعاً كانوا هكذا لاختفت من الدنيا هذه الحروب ، وانطوت — إلى الأبد — هذه المآسي والكروب ... ووثبت إلى ذهني — مرة أخرى — محاورة ممتعة بين (بوذا) وتلميذه (رنا) ، تصور ما كان يحويه هذا من نفس طيبة ، وخلق كريم ، وتسامح عظيم ، وحب للانسانية ، ورحمة لها وعطف عليها :

بوذا : إنك يا رنا مرسل إلى شعب غضوب فاس متوحش سفيه ، فلو أنهم بادروك بالسب واللعن ، فماذا يكون رأيك فيهم؟

رنا : أرى أنهم أناس طيبون ، لأنهم شتموني ولم يضربوني بيد ولا بحجر !

— فإن ضربوك بيد أو حجر ؟

— أرى أنهم أناس طيبون ، لأنهم ضربوني باليد والحجر ، ولم يضربوني بعصاً ولا بسيف !

— فإن ضربوك بالعصا أو بالسيف ؟

— أرى أنهم أناس طيبون ، لأنهم ضربوني بالعصا أو بالسيف ولم يقضوا على حياتي !

(١) الرافعي (عليه رحمة الله) مقال بهذا العنوان في « وحي القلم »

— فإن قضوا على حياتك ؟

— أرى أنهم أناس طيبون رحماء ، لأنهم خلصوا روحى من هذا الجسم الملىء بالأدناس بأقل ما يمكن من الألم !

— هذا حسن يا برنا ! وإنك لخير من يستطيع أن يباشر تلك الشعوب البربرية — اذهب يا برنا أنت الخالص تخلص غيرك وأنت المزّكى ، تمز غيرك ، وأنت الواصل إلى (النرفانا)(١) ، فاذهب وادع إليها الآخرين !

وانصرفت بهذه الوثبات الذهنية عمن حولى ، ولم أعد أبصر الشباب الباكين والباكيات ، أو أسمع صوت النائحات الحزينات ، ولم يردنى إلى الواقع الدامع ، إلا امرأة معفرة الوجه بالتراب ، ممزقة الثياب والجلباب ، يمشي خلفها شاب دامع العينين ، قد اتشح بالسواد ، جثنا على أحد جانبي القبر يبكى ويمرغ به وجهه ، وجثت المرأة على الجانب الآخر تنتحب وتولول ، وكان مشهداً محزناً رأيت فيه عيني تسحان بالدموع .. وبعد قليل رأيت المرأة وقد غابت عن وعيها ، وفقدت صوابها ، ونظرت إلى ذلك الشاب بعينين دامعتين جاحظتين قد اختلطت فيهما نار الحقد بدموع الأسى ... ونهضت إليه ، وأهوت بيدها عليه تضربه ، وهو ساكت ساكن لم يرفع بصره إليها ، ولم يحاول أن يفر من أمامها ، ونظرت إلى صاحبي ومن حولى ، فإذا بهم جميعاً يبكون ، وألسنتهم تتمتم قائلة : (لا حول ولا قوة إلا بالله ...)

أخذت بيد صاحبي ونهضت والدهشة ملء نفسي ، والألم يحز في فؤادى ، ولم يغب عن فكرى أنها مأساة باكية ، بيد أنى لم أفهم منها شيئاً ، وبقيت صامتاً أمشي بين القبور رويداً رويداً وأبو العلاء يصيح في أذنى :

سر إن اسطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالا على رفات العباد
رب لحد قد صار لحداً مراراً ... ضاحك من تزاحم الأضداد

وما إن ابتعدت عن المقبرة ، وغاب عن بصرى مرأى الصيوان ، وانقطع عن سمعى صوت البكاء والنواح حتى التفت إلى صاحبي قائلا :

— يبدو أن ما رأيته فصل محزن من مأساة دامعة وقصة باكية ؟!

(١) من تعاليم بوذا : أنه كما أن الأرض تحمل ما يلقى فوق ظهرها من خبائث الأشياء دون ضجر وتقابلها قبولها الطيبات ، كذلك يجب على البوذى أن يحتمل باسماً احتقار الناس وإهاناتهم ، وأن يتقبلها بنفس الروح التى يتقبل بها الإجلال والتشريف . وكما أن الماء يتخلص عن التراب ليروى الظمآن ، كذلك يجب على البوذى أن يشعر أعداءه بنفس الخيرية التى يشعر بها أصدقاءه .

فتنهد صاحبي وجفف بمنديله دموعه ... ثم قال :

— لعلك — يا صاحبي — لم تشهد من هذه المأساة إلا أقل فصولها ألماً ، وأيسرها أسى وحزناً ... أتذكر — يا صاحبي — ذلك الشاب الوادع الهادئ الظريف الذى كان يملأ المجالس أنساً وصفاء ، والذى كان زهرة عطرة بين أترابه ، وبسمة لامعة بين أصحابه ... جميل ؟

وسكت صاحبي ثم قال : نعم ... جميل الذى ...

فقاطعته قائلا : كان زينة القرية وبهجتها ، وأنسها وأمنيتها ، ما ذا أصابه ؟!

فقال وكأنه يتحاشى النبأ :

— أسفاً على شبابه الغض ! هو — يا صاحبي — هو ... (القتيل) الذى رأيت على قبره الصيوان والأحزان ... وتلك التى رأيتها تولول وتنوح (أمه) ، وذاك المتشح بالسواد الذى كانت تضربه فلا يتحرك هو (أخوه) !

— قتيل ... ومن القاتل ؟ !

وهنا تململ صاحبي وهمس بأذنى والدمع قد بلل وجهه :

— حقاً إنها مأساة ! لقد قتله (أخوه) ... يا صاحبي !

— وكيف قتله ولماذا ؟!

— ذلك هو حكم القدر !

وهنا تمثل لى (بوذا وبرنا وكونفوشيوس) باكين محزونين ، يلقون على هذه الإنسانية نظرة إشفاق ورثاء ، وقد نظر كل واحد منهم إلى صاحبه — والألم يعض نفسه — كمن يذكره بعسير تعاليمه ، ومآل مبادئه ...

ولقد أثار حديث صاحبي كوامن الألم في نفسي ، والأسى في لبي ... فقلت : عليه رحمة الله ... ولم أشعر — قبل أن أترك يد صاحبي إلا ولسانى يتلو قوله تعالى :

(واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين . إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) .

(دمشق — المزة) عمر عودة الخطيب